حوليات آداب عين شمس المجلد 52 (عدد يناير – مارس 2024)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)

جمالية المكان في شعر سعيد يعقوب

سعود أمجد الذنيبات*
طالب دكتوراة كلية الاداب/ جامعة مؤتة
garallleh_77@hotmail.com

أ.د/ زهير أحمد المنصور*
كلية الدراسات العليا كلية الاداب جامعة مؤتة
zohairm@mutant.edu.jo

تاريخ الاستلام: 2023/05/13
تاريخ قبول البحث: 2023/06/28
تاريخ النشر: 2024/03/30

المستخلص:

هدف هذا البحث إلى الوقوف على جمالية المكان في شعر الشاعر الأردني سعيد يعقوب،وما لذلك المكان من حضور في شعره سواء المكان الأردني والمكان العربي، وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، إن المكان الأردني الحاضر في وجدان سعيد يعقوب يظهر جليًا في قصائده وهو يُعبر عن حالة عشق، وهو ما يجعل سعيد يعقوب يُقدم لنا نصوص فائضة الجمال، ونابضة بالحب، فتخرج الأمكنة عن جغرافيتها وهندسيتها لتُشكل لنا حياة الشاعر بمراحله وتحولاته المختلفة. وقد تعددت الأمكنة الأردنية مثل مدينة الكرك، ومادبا والمزار وغيرها، كما ظهرت بعض الأماكن العربية مثل غزة، والمسجد الأقصى.

الكلمات المفتاحية: جمالية، المكان، سعيد يعقوب، الأردن

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2024.

المقدمة

الحمد لله علام الغيوب، الذي علمنا العلم وأمرنا بتعلمه وتعليمه، والذي أكرمنا بلسانٍ عربيٍ مُبين، أنزل به خير كتاب على العالمين والصلاة والسلام على نبينا وقدوتنا محمد النبي العربي الأمين، اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي وبعد

إن لجمالية المكان وحضوره في الشعر العربي القديم والحديث، يُعد من أهم الدراسات التي دأب الباحثين على دراستها وسبر أغوارها، لأنه العنصر الفعال الذي تتشكل منه النصوص الشعرية بالإضافة لبقية العناصر الشعرية.

ولِما يحمله المكان من خصوصية كبيرة لدى الشاعر والمتلقي، وتجربة الشاعر من خلال مكانه ومجتمعه والزمان الذي يعاصره، وكل ذلك يؤدي لإثراء التجربة الشعرية بالإضافة لثقافة الشاعر وما يلزمه وهو يقوم بعملية الإبداع الشعري من جزالة اللفظ وقوة المعاني وتعدد الدلالات وطرحه للمواضيع المختلفة، وجمالية المعاني والصور الفنية والتي تشكل كلها عامل الجذب لدى المتلقي لكي يُقبل على أدب وشعر الشاعر.

وتهدف دراستي هذه التي تقوم على المنهج الوصفي التحليلي بدراسة جماليات المكان لدى الشاعر سعيد يعقوب، وما لذلك المكان من حضور في شعره سواء المكان الأردني والمكان العربي، وأخص بالذكر بعد خصوصية المكان الأردني وهي القضية الأسمى نحو تحرير الأرض والإنسان متمثلة بالمكان الفلسطيني لدى الشاعر والمقدسات الإسلامية المحتلة.

إن الشاعر سعيد يعقوب بشخصه وشعره يعتبر علامة فارقة في الشعر الأردني والعربي، لغزارة إنتاجه الشعري وحضوره الفعال بمختلف الميادين الثقافية والشعرية، ذلك الذي شكل له بصمة في الشعر العربي الأصيل، وكان ذلك السبب الرئيسي بقيام الكثير من الباحثين بدراسة شعره بالرغم من أن تلك الدراسات تعتبر قليلة بالنسبة لإنتاجه الشعري، غير أنني لم أجد بين تلك الدراسات دراسة متكاملة عن جماليات المكان في شعره.لذلك كانت تلك الدراسة للإجابة على الكثير من التساؤلات ولكشف الجماليات المكانية في شعره، وما فيها من شاعرية وصور فنية وبديعية.

جمالية المكان

تُعد جماليات المكان قضية ذات حضور واضح في الشعر العربي لِما له من سحر المعاني والألفة، لذلك فأننا عندما نتحدث عن جماليات المكان في الشعر والأدب بشكل عام، فإنه سرعان ما يتبادر لذهننا البيت الذي هو سكن الإنسان، وراحته، وعالمه الأول، الذي وُلد فيه وعاش طفولته وحياته، وهو ما نعتبره المكان الداخلي والمكان الأول بالنسبة للإنسان، ومن ثم ننطلق إلى بقية الأمكنة التي عاش بها الإنسان، الحي والقرية والمدينة، والسهل والجبل والصحراء والبحر والنهر، المدرسة والجامعة ومكان العمل، يمكن أن نقول أن هذه دراسة هندسية للمكان ولكن في الشعر والأدب ينحى المكان منحى آخر، ويأخذ أبعاد عديدة، من الخيال والحلم والسحر، الذي يضيفه الشاعر على المكان، الفرح والحزن، الغنى والفقر، البؤس والسعادة، كلها تأخذ حيزًا كبيرًا في خيال الشاعر، وتتكون وتتشكل الصورة الشعرية "الصورة الشعرية هي بروز متوثب ومفاجئ على سطح النفس".[1]

فالشاعر هو من يُترجم لنا ذلك المكان وما يعتريه من مشاعر وخلجات نفس، وعواطف خلال تواجده فيه، فتتحول الأمكنة إلى لوحات فنية يرسمها الشاعر بالكلمات، ويُضفي على تلك الأمكنة من شاعريته وَحُسن بيانه، ما يجعل الأمكنة تَنبضُ بالحياة، فالمكان يحمل مجموعة من الدلالات منها النفسية والوجدانية والجمالية، فهي منبع الذكريات والدليل على الانتماء، وهي التي تُطلق خيال الشاعر.

فالمكان هو مهد الطفولة ومرتع الصبا، وانطلاقة الشباب، وملاذ الكهولة، ففي الشعر العربي القديم كان للمكان الحضور الأقوى في القصيدة العربية، كما في قصائد الاطلال، التي تُرثي المكان ولأهمية المكان في الشعر العربي فإن البيت الشعري مأخوذ من البيت وأوتاده، وهذا إن دلَّ على شيء فإنه يدلُّ على قُدسية المكان الأول، الذي ينطلق منه الإنسان إلى بقية الأمكنة.

وبالنسبة لعلاقة الانسان بالمكان، الإنسان هو الذي يبعث الحياة في المكان، وهو الذي يصنع أحداث المكان وتاريخه، والمكان الأول بالنسبة للإنسان وهو السكن والطمأنينة والراحة النفسية بل الراحة الأبدية، مهما حمل ذلك المكان من بؤس وحزن، فمهما ألف الإنسان من أماكن ومدن فإن الطفولة لها في الذاكرة والوجدان أعزُّ وأنقى مكان، وكذلك دومًا يَحِنُّ ويستذكر البدايات مهما كانت، يتذكر الأم والأب والأخوة والجيران وأصدقاء الطفولة، فكل انسان لديه تلك العواطف، وذلك الحنين للماضي الزماني والمكاني، لذلك عند سعيد يعقوب يتحول المكان إلى روح، إلى جنة، إلى حسناء، إلى انتصار وافتخار واعتزاز.

وذلك بسبب ربط الأمكنة في التاريخ، تاريخ الفتوحات والانتصارات والتضحيات، فلكل الأمكنة في شعره مكان، حتى أننا نرى القصائد المطولة عن الأمكنة وعن تاريخها العريق، بدأً من مدينة مادبا ومن ثم بقية المدن الأردنية، والتأريخ للمكان في شعره لا يقر به الشاعر فقط للتغني أو التأسي على الماضي، ولكنه يقصد استنهاض الهمم وبث العزائم في الأجيال لكي تنهض الأمة من جديد، وسعيد يعقوب لا يذكر الأمكنة فقط التي عاش فيها، ولكنه باستحضاره التاريخ، يذكر تاريخ المُدن الأردنية ما قبل الميلاد، كالحضارة المؤابية وملكها ميشع، وملك الأنباط الحارث الرابع، وغير ذلك من التاريخ، ويذكرنا بالتاريخ الإسلامي لتلك المناطق وما حدث فيها من أحداث ومعارك، من مؤته إلى اليرموك إلى الكرامة، ومن ثم في وقتنا الحاضر مما يراه بعين الشاعر ما يجب وما يحب أن تكون الأردن بلده الحبيب على قلبه، ومن

ثم سائر الدول العربية والعالم الإسلامي، وكل ذلك لأنه يؤمن بأن لتلك الأمم الحق في العودة لقيادة العالم، لكي تكون قائدة وليست مجرد تابع ذليل، ومستهلك همه مجرد الأكل واشباع شهواته ونزواته.

ومن خير الأمكنة المسجد الأقصى، ثالث الحرمين الشريفين، وقبلة المسلمين الأولى، ويذكرنا بمعركة حطين، بالإضافة إلى أنه لا يغيب عنه دعوة المسلمين لتحريره، والخروج من الفرقة والضعف، الذي يعيشه العالم العربي والإسلامي، والقصيدة طويلة تتكون من ثلاث وثلاثين بيت، كلها تُمجِّد وتُقدِّس وتُخلِّد القدس ومسجده الأقصى المبارك.

المسجد الأقصى

تقدّسَ ذكرُهُ وَسَمَتْ عَلاهُ

وشرَّفَهُ بما أوحى الإلهُ

فسبحانَ الذي أَسْرى بِطه

مِن البَيتِ الحَرامِ إلى حِماهُ

وبارَكَ حوْلَهُ حتَّى لتَلقى

جِنانَ الخُلْدِ تَسْكنُ في ثَرَاهُ

لا يا ثالثَ الحَرَميْنِ عُذرًا

إذا اخْتلجَتْ لِذكراكَ الشِّفاهُ[2]

في البداية يُذكرنا سعيد يعقوب بمكانة المسجد الأقصى، وأرضه التي باركها الله سبحانه وتعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[3] إنه مسرى النبي صلى الله عليه وسلم، وثالث الحرمين الشريفين، وسعيد يعقوب يُقدم له الاعتذار وكأنه يخاطب انسان عزيز عليه

أتى (الفاروقُ) تعظيمًا إليهِ

بيومِ الفتْحِ يَحْدوهُ هَواهُ

فأهلُ القدْسِ لمَّا أَبصرُوهُ

رَأوهُ تاجَ التَّواضعِ قدْ عَلاهُ

فلا كِبْرُ الملوكِ عليهِ يبدو

ولا تَرَفٌ يُحيطُ بهِ وجاهُ[4]

كثيرة هي الفتوحات التي حدثت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولكنه لم يترك المدينة المنورة ويذهب اليها بنفسه وهذا ما حدث مع المسجد الأقصى لأهميته بالنسبة للمسلمين ولخصوصيته، ولكي يجعل فتحه بدون إراقة دماء بل فتحها بسلام ومعاهدة مع أهل الكتاب وحفظ حقوقهم، وقد صوره سعيد يعقوب كما جاءها متواضعاً، وغير متكبر ولا يُحيط به الترف والجاه

وجاءَ لَهُ (صلاحُ الدِّينِ) يَسعى

بهزمٍ لاحَ مُؤْتَلِقًا سَناهُ

فحرَّرهُ وردَّ لهُ أَمانًا

بهِ أوْدى العدوُّ بما جنَاهُ
فسَلْ (حطِّينَ) عمّا دارّ فيها
وما لَقِيَ العدوُّ ومَا رآهُ[5]

وهذا هو الفتح الثاني للمسجد الأقصى بعد أن حررها صلاح الدين الأيوبي من أيدي الصليبين، ولأن التاريخ شاهد وخير شاهد على التاريخ هو المكان الذي تحدث فيه الأحداث والوقائع، وتلك معركة حطين التي انتصر فيها المسلمين ومكانها هو الشاهد على ذلك، فيصبح المكان بالنسبة للشاعر، له روح ويمكننا أن نتوجه بسؤاله عن تلك المعركة.

فَيا رَبّاهُ أصْلحْ شَأْنَ قوْمي
فإنَّ القوْمَ في الظلماتِ تَاهوا
وَجَمِّعْ شَمْلَ أمتِنا فكلٌ
بهِ يسْعى كما يهوى هَوَاهُ
لِنَدْخلَ سَاحَةَ الأقْصى فتَغْنو
عَلى الفتْح المُبينِ لكَ الجِباهُ[6]

هي دعوة من الشاعر ومناجاة لكي تعود الأمة العربية مجتمعة وتخرج من الظلام والتيه الذي تعيش به، وكله يقين بأن نتيجة ذلك الاتحاد سوف تكون بتحرير المسجد الأقصى من الغاصبين، وتتوالى قصائد الديوان بذكر تضحية أهل المسجد الأقصى والانتفاضة، ولأهمية فلسطين يضع سعيد يعقوب ديوان كامل عن غزة، وما تقدمه من تضحيات ومجاهدة للعدو المحتل، وسطر كل ذلك بديوان أسماه "غزة تنتصر" وكانت اولى عناقيد ذلك الديوان والسِفر العظيم بعنوان غزة وتلك القصيدة فازت بالمركز الأول في المسابقة التي نظمها مسرح عمون بعمان بتاريخ 7\8\2014م أثناء العدوان الصهيوني الغاشم على قطاع غزة.

غَزَّة

أَوقِدُ جراحَكَ في الظَّلَامِ سِراجَاوَارْفَعْ جَبِينَكَ كَوْكَبًا وَهَّاجَا
وّاضْفِرْ مِنَ الأَشْوَاكِ تاجًا وَانْتَصِبْزَهْوًا عَلى هَامِ الكَواكِبِ تاجَا
وَاحْفرْ طَرِيقَكَ في الصُّخورِ تَحَدِّيًاواملَا عُيونَ الشَّمسِ مِنْكَ عَجاجَا
وَاعْضضْ عَلى الجُرْحِ العَميق بِعِزَّةٍإنْ شِئْتَ للجُرْحِ العَميق عِلاجَا[7]

تلك الأبيات في مقدمة القصيدة تدعو للعزة والقوة والعزيمة في مقاومة المحتل وتستمر أبيات القصيدة بمدح أهل قطاع غزة[8]:

يَا ابْنَ القِطاعِ قِطـــــاعِ غِزَّةَ أحْرَجَتْ فَصْحى فِعالِكَ صَمْتَنا إحْراجَـــا
يَا ابْنَ القِطاعِ ولَسْتَ تَمْلُكُ حاجَـــــةَ لكَ أنْتَ أمسى كُلُّنا مُحْتاجَـــــا
يا واقِفًا لِلْمَوْجِ وَحْدَكَ قُلْ مَتَى خَشِيَتْ صَخَورُ الشاطئ الأمواجَا
رَوِّجْ عَلَيْنا مَا جَمَعْتَ مِنَ العُلا فلعِلَّـــــهُ فينا يُصيبُ رَواجَا
واشْرَحْ لَنا أُسُسَ الكَرامَةِ رُبَّمـــــا مِنَ بَعْدِ شَرْحِـــكَ نَفْهَمُ المِنْهاجَا
وَانْثُرْ عَلَيْنا مِنْ يَمينَكَ عِزَّةً وَاسْكُبْ عَلَيْنا مَاءَها الثَّجاجَا

واعْزِفْ نَشيدَكَ إنْ عَزْفَكَ مُذْهِلٌ كَمْ راق مَنْ يَصْغي لَهُ وَأهاجَا
يَا ابْنَ القِطاعِ اصْعَدْ على الأَلَمِ الُمِ ضْ وَمِنْهُ شُقَّ إلى السّنا مِعْراجَا

وجميع تلك القصائد والدواوين تؤكد للباحث مدى أهمية المكان لدى سعيد يعقوب، فالمكان بالنسبة للشاعر السكن، والوطن، والتاريخ، والحضارة. وأيضًا للعبرة من الدروس التي يقدمها التاريخ عن الأمكنة وتاريخها، وللمكان الأردني في شعر سعيد يعقوب النصيب الأكبر، ولمدينة مادبا حُصَّة الأسد من بين كل تلك الأمكنة، لأنها مسقط رأس الشاعر.

من خلال دراستي هذه، فإن المكان حاضر بقوة لدى سعيد يعقوب، ولولا أن شاعرنا قد كتب في كل أغراض الشعر وله فيها باع طويل، لكان شاعر المكان بلا منازع.

ففي قصيدة هذا هو الأردن من ديوان المكان الأردني، ديوان نسمات أردنية يقول الشاعر[9]:

الدَّهْـــرُ يَهْرِمُ والزَّمانُ يُشيبُ وَشَبابُ أُرْدُنِّ الفَخَارِ قَشيبُ
هَذا الحِمى غالٍ عَلى قَلبي وَمَا عِنْدي سِوى هَذا الحَبيبِ حَبيبُ
هُوَّ جَنَّةُ الدُّنْيا فَما إلّا بِهِ تَحْلـــو الحَيـــاةُ بِمُقْلَتـــي وَتَطيبُ

فهؤلاء شباب الأردن، فمهما شاب الزمن وهرم الدهر، فإن شبابه ثابتين بقوة وصلابة على الفخار، وهذا الحمى غالٍ على قلب شاعرنا، بل إنه ليس له حبيب سواه، وهو الجنة التي لا يطيب له العيش والحياة إلا بها، حتى أنه لو كان في الفردوس وهو غاية المنا لأي إنسان فإنه يقول[10]:

لَوْ كُنْتُ في الفِرْدَوْسِ أَنا مَدَىيا رَبُّ لِلأُرْدُنِ سَوْفَ أَؤُوبُ

وهذا بلد معركة الكرامة، وتلك الأنفس التي طهرت بخوض تلك المعركة التاريخية، وسمت الأرواح والقلوب كما يقول سعيد يعقوب[11] :

تَفْديكَ يَا أَرضَ الكَرامَةِ أَنْفُسٌ طَهُرَتْ، وَأَرْواحٌ سَمَتْ، وَقُلُوبُ

وبعد تلك المقدمة تبدأ النسائم الأردنية ببث أَريجها وعبقها، الذي يتغنى بها الشاعر، فتكون بعاصمة الأردن، عمان وهي كما الشامة على الخد، وتلك كناية عن الجمال، التي يذوب فؤاد الشاعر بها، وهي التي لو نافستها أجمل الجميلات فأنها تخيب، وفوق ذلك هي عبارة عن حرم وذلك من قدسية المكان لدى الشاعر، وهذا الحرم مَصون بالرجال الذين بعزهم وقوتهم وشدة بأسهم فإنها مُهابة الجانب مكرمة:

فَهُنا أَرَى عَمَّانَ شَامَةَ خَدِّهِ
تَلْكَ التِي فِيهَا الفُؤَادُ يَذُوبُ
لَوْ نَافَسَتْهَا فِي الجَّمالِ كَوَاعِبٌ
مَنْ نَافَسَتْهَا فِي الجَّمَالِ تَخِيبُ[12]

وبعد عمان ينتقل شاعرنا لمدينة إربد وهذا لدى الشاعر ليس تفضيل مدينة على أخرى، بل يجعل الكلمات تمضي على سجيتها عفوة الخاطر، وكاملة المعنى، فيقول[13]:

وَبِإِرْبِدِ الخَرَزَاتِ تَاهَ شِمالُهُوَاخْتَالَ بِالكَرَكِ الأَشَمِّ جَنوبُ
فَهُنَالِكَ اليَرْموكُ دُرَّةُ فَخْرِهِوَهُنَاكَ مُؤْتَةُ عِزَّةً وَوُثُوبُ

وهنا نرى كيف أن الشاعر قد ذكر إربد شمالاً، وفي العجز ذكر الكرك جنوبا وكل ذلك الترتيب منه ليس عفواً، بل فيه الكثير من المعاني هذا الجمع بيم مدن الأردن من شماله لجنوبه لشرقه ولوسطه، ومع كل ذلك لا يغيب عن الشاعر الحضور التاريخي للمكان فإنه يذكرنا بمعركة اليرموك، في إربد، ومعركة مؤتة في الكرك، ثم يستمر سعيد يعقوب بذكره لبقية المدن الأردنية، فهذه عجلون وفيها يقول[14]:

وَعَلى ذُرَا عَجْلُونَ تَشْمُخُ قَلْعَةٌ فِيهَا
مِنَ الفَنِّ البَدِيعِ ضُرُوبُ

والقلاع دوماً ما تكون دليل عظمة المكان الذي تُبنى عليه فالقلاع بسبب شموخ ذلك المكان ومكانه ومكانته وأهميته، فهي حصون منيعة في وجه الأعداء

وبعدها الزرقاء:

وَهُنالكَ الزَّرْقاءُ كَمْ مِنْ أَهْلِهابِالضَّيْفِ حفّ البِشْرُ وَالتَّرْحيبُ
أَرْضُ الحَضارَةِ وَالمُروءَةُ وَالعُلاعَنْها يُحَدِّثُ "عَمْرَةً" و "شَبِيبُ"[15]

ولأن الحضور التاريخي كثيف جدًا لدى الشاعر، فإنه يذكر قصرين في مدينة الزرقاء، قصر عمرة، الذي بُني في عهد الأمويين، وقصر شبيب الذي بُني في العهد الروماني قبل الميلاد، وكل ذلك من الأدلة الأكيدة على الأردن الزاخر بتاريخه وحضاراته.

وتستمر نسمات سعيد يعقوب، ويفوح شذاه العليل فيقول في السلط[16]:

وَالسَّلْطُ شامِخَةٌ تَسامِرُها السُّهاوَعَلَى الكَواكِبِ ثَوْبُها مَسْحوبُ
وَعَلَى ذُرَاهَا الشَّمِّ أَلفُ حِكايةٍلِلْمَجْدِ يَرْوِيهَا النَّدى وَالطِّيبُ

ومن ثم مأدبا ويذكر الملك المؤابيميشع، ومرور صلاح الدين الأيوبي من حسبان في طريقه لتحرير المسجد الأقصى، والأهم من ذلك يذكر سعيد يعقوب بذلك التآخي والتلاحم في مأدبا بين المسلمين والمسيحيين.

وبمادبـــا التاريخ ميشعُ باسمٌ ما زال يلمعُ سيفه المخضوبُ
وكم رأيت هلالها بِأُخـــــوةٍ يهفو ليَلثُمَ وجنتيـــــهِ صليب
ونسيمُ نيبـــو عاشقٌ قد شفهُ وجدٌ، وشـــــاق فؤادهُ محبوبُ
حمل الهوى من أرض مسرى فالأفق طلقٌ والمكان رحيب
أحمد
وخُطى صلاح الدين في حُسبانها يجلو دُجاها عزمهُ المشبوبُ[17]

ذلك العشق والتغني بالمكان والاحتفال به، وتلك اللوحات التاريخية التي تُخلد المكان، فلا يغيب عن الشاعر أي من الأماكن ولا يكون لها ذكر، فجبل نيبو الذي نشاهد من قمته قبة الصخرة والأراضي الفلسطينية، وهو كالعاشق الذي غلبه العشق والجوى وهو ينظر إلى معشوقته فلسطين، التي كلما هب النسيم فإنه يحمل معه عطر مسرى النبي صلى الله عليه في إشارة إلى المسجد الأقصى، كل تلك الأمكنة الرحبة

ومن ثم في معان يقول[18]:

وَعَلَى سُهُولِ مَعَانَ تَخْفُقُ رَايةٌالنَّصْرُ فَوْقَ جَبِينِهَا مَكْتُوبُ

تُصْغي دِمَشْقُ إِلى خُطى فُرْسانَهافَالقَفْرُ بِالأَمَلِ الشَّذِيِّ خَصِيبُ

فهو يذكرنا بالثورة العربية الكبرى التي انطلقت من مدينة معان، ويختم بما بدأ القصيدة، وذلك التكرار للتأكيد للمتلقي بما يعنيه الأردن لسعيد يعقوب:

هَذَا هُوَ الأُرْدُنُّ طَوْدٌ شامِخٌلَوْحانَ مِنْ هُوجِ الرِّياحِ هُبُوبُ

يَزْهُو عَلَى الدُّنْيا بِحُسْنِ شَبَابِهِوَالدَّهْرُ يَهْرِمُ وَالزَّمَانُ يَشيبُ[19]

لقد تعددت علاقة الإنسان بالمكان، فتجدها أكثر عمقًا في النواحي النفسية، والوجودية، والتاريخية، تظهر في نسيج لا متناهٍ للنص الجمالي، وتؤسس للامركزية الإنسان بالعالم.

أصبحت الظاهرة المكانية في الشعر العربي الحديث واضحة المعالم، تستدعي البحث في أبعادها، ووظيفتها، وموقع الشاعر داخل بنية المكان، وقدرته على الظهور، والانصهار في بوتقته، إذ يسعى النص الشعري المعاصر إلى ترسيخ دلالة المكان داخل بنيته، لما ينطوي عليه من بُعد تفاعلي، يعمق التجربة الشعرية المعاصرة، ويصقلها بمعارف جديدة[20].

فعلاقة الإنسان بالمكان تكون عميقة جدًا في النواحي النفسية، والوجودية، والتاريخية، وكل ذلك يظهر في جمالية النص، والآن في عالمنا العربي، أصبحت الظاهرة المكانية مهمة للباحثين والدارسين، وكل ذلك يعمق التجربة الشعرية المعاصرة، مما يؤدي إلى اكتساب المعارف الجديدة.

ثم يتحدث الدكتور عماد عن أثر المكان في ذاكرة المتلقي، وكيف أن النقد الحداثي أصبح يتحدث عن المكان خارج حدوده الجغرافية، وفق أبعاد نفسية واجتماعية وتلك الأبعاد تكون ذات صلة واضحة بالذات المبدعة، وهذا ما جعل الاهتمام بالمكان في الشعر العربي الحديث، بوصفه محفزًا للإبداع، ومثير للذاكرة الإنسانية في جميع حالاتها من نشوة وانكسار وفرح وحزن، ونصر وهزيمة وطل ذلك يكون مستندًا إلى إرث انساني خصيب يخاطب الوجدان الإنساني.

ويتحدث الدكتور عن المكان في النص الإبداعي ومجموعة الوظائف التي يقوم بها:وينهض المكان في النص الإبداعي بوظائف مهمة؛ فهو يحدد الحالة النفسية للمبدع، ويبرز معالمها، ويكشف عنن الرؤيا الفكرية، وتجلياتها الإبداعية، فضلًا عن دور المكان في التعبير عن المشاعر الإنسانية وما يكتنفها من رفض أو قبول، فضلًا عن قدرة المكان على اختزال الزمن، وتهيئته للانبعاث في لحظة انبثاق الرؤيا، أو التعبير عن موقف ما.[21]

وكيف أن المكان في الشعر الأردني قد برز بشكل واضح، وهو ما يُترجم ويعمق حالة العشق اللامتناهية التي ابدعها الشعراء في أمكنتهم الملهمة، إذ ينتظم المكان الأردني بشخوصه وأحداثه وإرثه الحضاري قصائد الشاعر سعيد يعقوب جاعلًا منه بنية نصيّة قادرة على استيعاب العواطف والمشاعر الإنسانية، فضلًا عن قدرة المكان على البوح الشفيف، واختزال اللحظة المعاصرة وتكثيفها لتمارس سطوتها على المتلقي.

إنّ تعميق الشعور بالكينونة الجمالية للشعر لا يتم إلا بالكشف عن سرّ خلوده، وبيان أحقيته في التفرّد والقراءة، لذلك فإنّ الكشف عن مرتكزات العمل الشعري بات حاجة مهمة في ظل تشابك مكونات العملية الابداعية.

ولأن الجمال هو إحدى حالات التجلي الواضحة للحقيقة، فإن الاحساس به وتقدير قيمة الجمالية يعد مقياسًا للمفاضلة بين الأعمال الإبداعية.

"**الكرك في شعر سعيد يعقوب**"

سعيد يعقوب الذي دوماً ما تجده في كل مكان أردني دون تقصير وتأخير أو تقديم مع الأخذ بعين الاعتبار، ذلك الميل القلبي الذي جُبِل عليه الإنسان، وهو ما يرتب المحبوبات لدى الإنسان ولأننا في كرك الشهامة والرجولة ونتفيء في جمالية المكان الكركي من خلال شعره، كما أن للكرك في كثير من قصائد سعيد يعقوب مع بقية المدن الأردنية، فإنه جعل للكرك في ديوان نسمات أردنية، قصيدة طويلة أصيلة كأصالة شعره.

وفيها نرى سعيد يعقوب يحتفل وهو ذاهب إلى الكرك الشماء، نجده نشوان مزدهي وهو ذاهب لأهل الكرك، ونكاد نطير فرحًا مع أبيات القصيدة وهي تحلق لكي تصل وتخطو حروفها على تراب الكرك، فيقول سعيد يعقوب إلى الكرك[22]:

إِلى الكَرَكِ الأَشَمِّ إِلى الجَنُوبِ ... إِلَـــى مَهْوَى الضَّمَائِرِ وَالقُلُوبِ
إِلَى أَهْلِيْ هُنَـــــاكَ إِلَى تُرَابٍ ... يَفُوحُ بِكُلِّ مَكْرَمَةٍ وَطِيبِ
إِلَى الكَرَمِ الأَصِيلِ إِلَى النَّشَامَى ... ذَوِي "النُّوماس" وَالحَسَبِ الحَسِيبُ
إِلَى أَلَقِ الرُّؤَى وَسَنَا الأَمَانِي ... وَنَفْحِ بَشَائِرِ الأَمَلِ الحَبِيبِ
إِلَى شِيَمٍ كَأَزْهَارِ الرَّوَابِـــيْ ... وَأَخْلَاقٍ كَفَاغِيـــــةِ الطُّيُوبِ
أَتَيْتُ إِلَيْكِ يَحْمِلُنِيْ صَلِيبِيْ ... وَمَـــنْ يَقْـــوَى عَلِى أَلَمِ الصَّـلِيبِ
وَبَيْنَ جَوَانِحِيْ الحَرَى لَهِيبٌ ... وَكَمْ يَشْقَى الفُؤَادُ مِـــنَ اللَّهِيبِ
وَأَحْزَانِي تُرَافِقُنِيْ كَظِلِّيْ ... وَتَصْحَبُنِيْ عَلَى كُلِّ الدُّرُوبِ
وَمِلءُ العَيْنِ جَمْرٌ مِنْ دُمُوعِـــيْ ... وَمِـــلءُ القَلْبِ لَفْحٌ مِـــنْ كُرُوبِيْ

وهنا نرى تكرار حرف الجر إلى في بداية الأبيات، وذلك التكرار يُعطي النص موسيقى لِجذب الانتباه لدى المُتلقي، " التكرار يستطيع أن يعين المتلقي في الكشف عن القصد الذي يريد الشاعر أن يصل إليه، فالكلمات المكررة، ربما لا تكون عاملاً مساهماً في إضفاء جو الرتابة على العمل الأدبي، ولا يمكن أن تكون دليلاً على ضعف الشاعرية عند الشاعر، بل إنها أداة من الأدوات التي يستخدمها الشاعر لتعين في إضاءة التجربة، وإثرائها وتقديمها للقارئ الذي يحاول الشاعر بكل الوسائل أن يُحرك فيه هاجس التفاعل مع تجربته، إن حرص الشاعرعلى إحياء تجربته في نفوس المتلقين يجعله يتحرز في اختيار الأسلوب الأكثر ملاءمة[23].

والآن نجد أن الشاعر مُستبشرًا وهو ذاهب إلى الكرم الأصيل وأهله النشامى أهل الحسب والنسب، ذاهبٌ وهو ممتلئ بالأمل، وتلك النفوس الشماء وفي صورة جميلة تُشبه أهل الكرك، كأزهار الروابي، وأخلاقهم العطرة، طيبة الرائحة، ذاهبٌ إلى الكرك وإلى أهلها، يخبرنا الشاعر بأنه حاملٌ معه ألم، وأن بين جوانحه حرارة، وفؤاده لم يعد يقوى على تحمل لهيب النار، تصاحبه الأحزان وعيونه مليئةٌ بالدموع التي يصفها شاعرنا بالحجر، وقلبه أيضًا مليء بالأوجاع والهموم والكروب، ولكن كله يقين وأمل بعد كل تلك الصور البديعية فإنه واثق من أن ذلك كله سوف يزول بمجرد وصوله للكرك، والآن يتكلم الشاعر عن الكرك وعن تاريخ الكرك وعراقتها، وكثير من الأحزان التي عاشتها في مختلف العصور

هُنَـــا فِي ظِلِّكِ المَمْدُودِ أَلْقَى ... عصَاهُ المَجْدُ فِي المِـــرْجِ الخَصِيبِ
هَنَا الرَّايَاتُ تَخْفِقُ فِي شُمُوخٍ ... وَخَيْلُ اللهِ تَدْعُو لِلرُّكُوبِ
هُنَا وَتَبَتْ خُيُولُ الفَتْحِ زَهْوًا ... فَعَلَّمَتِ الدُّنَـــا مَعْنَى الوُثُوبِ

وَجَعْفَرُ فِي مَدَى الأَشْوَاقِ حُلْمٌ يَرِفُّ عَلَى أَهَازِيجِ القُلُوبِ
وَزَيْـدٌ فِي رِحَـابِ الفَخْرِ سَيْفٌ يَصِلُ بِمَسْمَعِ الأُفُقِ الـرَّحيبِ
وَعَبْدُ اللهِ فِي ثَغْـــرِ اللّيَالِيْ نَسِيـــمُ الفَجْرِ يَأْذَنُ بِالهُبُوبِ
وَسَيْفُ اللهِ مَسْلُولًا يُدَوِّيْ صَهِيلًا فِي مَدَى الصَّمْتِ الرَّهِيبِ[24]

المكان هو تاريخ يرويه الشاعر، فمن خلال تلك القصيدة نستشعر عظمة تلك الأرض التي كان من نصيبها الكثير من المعارك الاسلامية والفتوحات التي حررت الأرض والإنسان، ويستذكر الشاعر معركة مؤتة وقادتها الشهداء ففي البدء جعفر رضي الله عنه الذي قاد المعركة حتى أستشهد ومن ثم زيد بن حارثة رضي الله عنه، ومن ثم عبدالله بن رواحة، وبعدهم حمل الراية خالد بن الوليد رضي الله عنه، تلك هي معركة مؤتة، التي كانت في الكرك في مدينة مؤتة.

ومن خلال دراستي عن المكان، وجدت أنه ليس للمكان حضور تاريخي فقط، بل جمالي، وشغف وعشق للمكان، فالمكان يتحول إلى خيال، ولكن هو خيال متمكن ومحسوس لدى الشاعر، وذلك لأنه مندمج مع الأمكنة التي يحبها ويكتبها شعرًا، بل رسماً وكأننا نرى المكان من خلاله، ونكتشف معه جماله وجماليته وتاريخه، فيصبح المكان واقعٌ ملموس، وكأننا نخاطب إنسان عاقل متكلم من خلال تلك اللوحات التي يرسلها لنا الشاعر من صوره الشعرية التي تنبض بالحياة

لذلك فإن المكان من وجهة نظر الشاعر ورؤاه، يمكن أن ننظر إليه من عدة جوانب "ويمكن النظر إلى المكان من خلال إبداع الشاعر وكيفية رؤيته للمكان، وما يمثله ذلك المكان من خصوصية بالنسبة له، فبعض المبدعين رأى المكان بواقعية، وبعضهم رآه من منظور رومانسي، وبعضهم رآه من زاوية التراث والتاريخ، وبعضهم الآخر عبر عنه بالفقد والفقدان لذلك أصبح المكان وعاء للتعبير عن هواجس الفنان ورؤاه وميدانًا لتأملاته وهيامه"[25]

وأرى بأن الشاعر أجتمع لديه كل ذلك، فلديه الخيال والواقع والتاريخ والتراث، ولديه الأدوات الإبداعية التي لها الأثر الكبير في نصوصه، وكل ذلك يجمعه حبه للمكان الذي يصوره شعرًا، فإنه لدى الشاعر يتحول المكان إلى تشكيلة شعرية، وهو بذلك التشكيل الشعري يُعيد صياغة المكان ورسمه فتكون جمالية المكان في أبهى صورها.

هُنَا فِي ظِلِّكَ المَمْدُودِ أَلْقَى عَصَاهُ المَجْدُ فِي المَرْجِ الخَصِيبِ

ففي ظل الكرك الفسيح وبتناصٍ مبدع من القرآن الكريم، وهو العصا، كما عصا سيدنا موسى عليه السلام، فإن المجد يُلقي بعصاه في المروج، في إشارة الى أن تلك العصا تبعث الحياة في تلك المروج، ومن ثم ينتقل بنا الشاعر متحدثاً عن الرايات الإسلامية، والفتوحات التي حررت بلاد العرب، وحافظت على أهلها بعهود تضمن حق العبادة للجميع، وجميع تلك الأحداث كانت على أرض الأردن.

ومؤتة قصةٌ للمجدِ تُروى على السُمارِ ما بعد الغروبِ[26]

ويوضح لنا الشاعر بأن معركة مؤتة هي من القصص الماجدة التي تُروى للناس حين يجتمعون للاستماع لرواة القصص بعد غروب الشمس، وذلك البيت يذهب بنا إلى حيث لم يكن انترنت ولا تلفاز ولا مذياع، والناس تجلس لتسمع لبطولات وأمجاد العرب والمسلمين، من رواة القصص.

ويستمر في مدحه وتغنيه وتذكيره بما تعنيه الكرك فهذه قلعتها شاهدة على عظمتها ومنعتها وقوتها فهي الحصن الذي تحمي المدينة وتجعلها مُهابة الجانب

وَهَذِيْ القَلْعَةُ الشَّمّاءُ تَتْلُـــوكِتَابَ العِزِّ فِيْ أُذُنِ السَّهُوبِ

تُحَدِّثُ عَنْ عَزَائِمِ مَنْ بَنَاهَاوَعنْ مَجْدٍ وَعَنْ سَيْفٍ خَصِيبِ[27]

قلعة الكرك، المَعلَم البارز والشامخ، الذي حوله تدور هوية الكرك، فهي تروي تاريخها منذ القدم، ومن أهم الأحداث، هو الانطلاق إلى تحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبي، القائد الإسلامي المقدام "أبا المظفر"

حَبَا مِنْ فَوْق هَذِيْ الأَرْضِ دّهْرٌوَشَبَّ وّأَدْرّكَتْهُ يَدُ المَشِيبِ[28]

فإن المجد كما الطفل حبا على أرض الكرك ومن ثم أصبح شابًا، وبعدها أدركته يد المشيب، وتلك كلها صور فنية بديعية حيث أن للعمر يد، تُبرهن على امتلاك سعيد يعقوب لِلغُته وألفاظه، فاليد تُدرك العمر وتمسك به وكأنها تقوده منذ الطفولة وحتى الكهولة.

أَتَيْتُكِ ظَامِئًا فَارْوِيْ غَلِيلِيْفَمَاؤُكِ لَيْسَ بِالْمَاءِ المَشُوبِ[29]

فالشاعر هنا يخاطب الكرك، كما يُخاطب الإنسان العاقل، ويطلب منها أن تروي عطشه، وّيَصِف ماؤها بأنه صافي وليس مختلط بشوائب تُكدره

وَمِنْكِ القَدْسُ تَرْقُبَ وَعْدَ نَصْرٍ
وَوَعْدُكِ لَيْسَ بالوَعْدِ الكَذُوبِ
وَأَزْهُو إِنْ نُسِيْتُ إِلَيْكِ إِنِّيْ
جَنُوبِيٌّ جَنُوبِيٌّجَنُوبِيّ
أَرَى بِعُيُونِ قَلْبِيْ رَغْمَ لَيْلِيْ
شُعَاعَ الفَجْرِ يُشْرِقُ عَنْ قَرِيبِ
وَتَاجُ الوِحْدَةِ الكُبْرى سَيَعْلُو
بِزَهْوٍ مَفْرِقَ الوَطَنِ المَهِيبِ[30]

وهذا الهاجس، هاجس التحرير، تحرير القدس والمسجد الأقصى والإشارة هنا للقدس تعني تحرير كامل أرض فلسطين العربية، وذِكر القدس هنا لما للمكان من خصوصية قدسية لدى المسلمين، وذلك لأن المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين الذي لا تُشدّ الرحال إلا إليهم كما أخبرنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال[31]: "لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِد: مَسْجِدي هذا، وَمَسجد الحَرام، وَمَسجد الأقصى".

وقناعة الشاعر بالنصر والتحرير هي دليل على مرجعية الشاعر والمشكاة التي يَنهل منها وهي ديننا الإسلامي ووعد الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم بالنصر والتمكين للمسجد الأقصى وأهله، وذلك اليقين بأن التحرير يكون للمسجد الأقصى من خارجها وهو لِبث العزيمة والثقة بالنفس لدى العرب والمسلمين بأن النصر قادم لا محالة.

وفوق ذلك نجد الشاعر صاحب نظرة ثاقبة وبصيرة بأن الوحدة سوف تكون هي نهاية ذلك التشرذم والتمزق بين الوطن العربي، بالرغم من أنه هو حامل الرسالة وهو الذي يجب أن يقود الأمم والعالم، ويزهو الشاعر بأنه جنوبي ويكرر ذلك ثلاث مرات، وتكرار الكلمة لدى الشاعر، هي الدليل على وجدانية ذلك الشعور والانتماء، يفتخر بكونه جنوبي ويزيد ذلك الافتخار بالتكرار الذي هو تأكيد وهو ما يُضيف للنص جمالية وهو ما يزيد من تنبيه المتلقي على ذلك الانتماء.

وفي شعر الأمكنة لدى سعيد يعقوب والمكان الأردني تحديدًا لا تخلو قصيدة من ذكر جميع المدن الأردنية، والتي من ضمنها الكرك ومدن الكرك، فالمزار الجنوبي كان له الحظ لدى شاعرنا ففي أمسية شعرية في محافظة الكرك ألقى قصيدته التي عنوانها.

المزار... مرقد الشهداء

قَلْبِي تَمَاهَى بِهَذِيْ الأَرْضِ وَاتَّحَدا
وَلَسْتُ أَشرِكُ فِيْ حُبِّيْ لَهَا أَحَدا
أَرْضُ البُطُولَةِ مُذْ كانَتْ وَمَهْبِطُها
وَمِثْلُ عِزَّتِها فِيْ الكَوْنِ مَا وُجِدا
هُنَا "المَزَارُ" سَمَاءُ فِيْ طَهارَتِهَا
وَكَوْكَبُ فَيْ دُجَى أَيامِنَا اتَّقَدا
تَعَطَّرَتْ بِدَمِ زَاكِ مِنَ الشُّهَدَا
ءِ، هَلْ هَنَالكَ مَنْ يَسْمو عَلَى الشُّهَدا
هِيَ "المَزارُ" لَهَا حَقٌّ إِذا شَمَخَتْ
زَهْوًا وَعِزًا بِمَنْ فِيْ تُرْبِها رَقَدا[32]

فهنا الشاعر يتماهى مع المكان لدرجة الانصهار، والاتحاد، ومن ثم يخبرنا عن ذلك المكان وتاريخه، والصحابة الذين كان لهم الفخر بدفنهم فيها، ودليل ذلك مقامات الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وهو كما يصفه الشاعر الذي زاد الأرض طهارة، كطهارة السماء وشبهها بالكواكب المضيئة في ظلام أيامنا، ولذلك يحق لها بأن تزهو وتفتخر وتشمخ وتعتز بكل ذلك التاريخ العريق.

مادبا في شعر سعيد يعقوب

مادبا هي صاحبة الحُظوة الكبرى والقمة السامقة، والحضور الدائم لدى سعيد يعقوب وكيف لا تكون كذلك؟! وهي مدينته، ففيها السكن وهي الوطن الأول، فيها كانت الصرخة الأولى والضحكة الأولى والكلمة الأولى، فيها الطفولة والصبا والشباب والكهولة، أول ما استنشق شاعرنا هو أريجها ونسماتها، لذلك يحق لها أن تكون كل القصائد لها وبها.

من خلال تلك القصائد لسعيد يعقوب فإنني قرأت مأدبا في الكثير من قصائده ودواوينه، مأدبا المدينة والحضارة والتاريخ، حتى أن ملكها ميشعالمؤابي كان له مسرحية شعرية يُمجد تاريخه وبطولاته وانتصاراته على اليهود ومسلته التي فيها سيرته وأينما قرأت وجدت مأدبا كلها، ذيبان وجبل نيبو وماعين، إنه عشق أزلي وحب عميق وصادق، فمن نسماته الأردنية قصيدة مأدبا

مَادبَا

لَسْتِ مِثْلَ النِّسَاءِ خَلْقًا وَخُلْقا
أنْتِ أَحْلَى وَأَنْتِ أَوْفَى وَأَرْقَى
أَنْتِ مَعْنَى الحَيَاةِ حِينَ تَنَاهَى
حُسْنُهَا رِقَّةٌ وَأَنْسًا وَصِدْقَا

فِي مَدى مُقْلَتَيْكِ تَرْحَلُ رُوحِي
لِتَرَى العَالَمَ البَهِيَّ الأَنْقَى
سِحْرُ عَيْنَيْكِ يَتْرُكُ الشَّاعِرَ المُلْهَمَ
حَيْرانَ لَيْسَ يَمْلِكُ نُطقًا[33]

هذه هي مادبا التي خلدها الشاعر فهي المحبوبة، هي الأنثى التي تُمثلها الأم والأخت والزوجة وهي الخصوبة والأُنسِ والسكينة والطمأنينة، فأجمل الشعر هو الذي يكون للمحبوبة فكيف أن كانت تلك المحبوبة مدينة، فأنها بكل تأكيد أحلى النساء، ولكي يكون الجمال كاملًا، فإنه ليس جمال الخَلق والخُلق، بل جمال الروح والقلب، فهي الأحلى، وهي في قمة الوفاء، وسمو الرُقيّ.

ويتفوق الشاعر في الوصف، فهي معنى الحياة، ويمتاز حُسنها بالرُقي والإنس والصدق، وكيف أن روحه في ذلك المدى ترحل لكي ترى العالم البهي والنقي، ومن شدة سحرها فإن الشاعر المُلهم يَقِفُ ساكنًا عن النطق من شدة الحيرة، هنا أبصر الشاعر كل حياته التي كان وجهها مُشرق، تلك الآمال ووجهها الذي أبصره منذ بداية حياته كانت كلها سرور

فيكِ أَبْصَرْتُ وَجْهَ آمالِ حُبِّيْمُشْرِقًا بَاسِمَ الأُسِرَّةِ طَلْقا
أَنْتِ أَحْنَى عَلَيَّ مِنْ كُلِّ قَلْبٍزَادَ مِنْ شِدَّةِ المَوَدَّةِ خَفْقَا[34]

هكذا العاشق يتودد ويتقرب من محبوبته مادبا ويخاطبها خطاب العاقل، وهكذا يتحول المكان حسب الشاعر إلى روح وقلب وعقل، وهو بذلك ينتقل به من الجمود إلى الحياة، فالشاعر يصبح المكان لديه مليء بالحياة

فَاتْرِكِينِيْ أَوَسِّدُ الرَّأْسَ فِيْ ظِلِّكِ
إِنِّيْ فِيْ غَيْرِ ظِلِّكِ أَشْقَى
وَاتْرِكِينِيْ فَيْ ظِلِّكِ الدَّافِيءِ الوَادِعِ
أَرْتَادُ بَعْدَ أُفْقٍ أُفْقا
وَازْرَعِينِيْ عَلَى جَدَائِلِكِ السُّودِ
زُهُورًا بِالعِطْرِ وَالسِّحْرِ غَرْقَى
وَدَعِينِيْ عَلَى فُؤَادِكِ رَعْدًا
وَدَعِينِيْ عَلَى شِفَاهِكِ بَرْقا[35]

يتكلم الشاعر مع محبوبته الأثيرة مادبا، ويطلب منها أن تتركه، لكي يوسِد رأسه في ظلها، فشبَّه ظلها بالصدر والكتف الذي يُريح الإنسان رأسه عليه وبكل تأكيد ذلك الكتف هو للأم أو الحبيبة، وهذه مادبا الحسناء يتودد إليها الشاعر لكي تزرعه في جدائلها السود الغارقة برائحة العطور والزهور، ومن العشق يُريد أن تدعه في قلبها، كما الرعد من شدة الخفقان وعلى شفاهها كالبرق لشدة سطوعه.

ويستمر سعيد يعقوب في بثه همومه وشجونه لمادبا، وهنا نرى كيف تتحول المُدن، من الجمادات بالنسبة للناس، حيث أنها مجرد أرض بكل ما فيها من تفاصيل، ولكنها لدى الشاعر فهي مليئة بالحياة ولها روح ومشاعر وأحاسيس وأفكار.

فَافْتَحِيْ لِيْ يَدَيْكِ ضُمِّيْ إِلَى صَدْرِكِصَدْرِيْ زِيدِيْ اقْتِرَابًا وَلَصْقا

وَانْفُضِي عَنْ رُوحِيْ غُبَارَ اللَّيَالِيْفَهُوَ مَلَّ الرَّحِيلَ خَيْلًا وَطُرْقا
وَابْعَثِيْ فِيْ شُعْلَةَ الحُبِّ مَا جَدْوىفُؤادٍ مَا ذَاقَ فِي الحُبِّ حَرْقا
وَامْنَحِينِيْ شِفاهَكِ الحُمْرَ أَرْوِيظَمَئِي تَقْبِيلًا وَضَمًّا وَنَشْقا[36]

كما العودة للمحبوبة، فالوطن أنثى تُضم، فليالي البعد تملأ الروحِ بالغبار، وهذه الروح روح شاعرنا، قد ملت الرحيل بجميع أصنافه، وأسبابه ووسائله من طرقات وخيول، فهذه الخيول ممكن أن تكون أي وسيلة نقل سواء سيارات أو سفن أو طائرات فجميعها لدى الشاعر سيان، يطلب الشاعر من محبوبته أن تُشعل الحب في قلبه، فما الجدوى من ذلك، إن لم يحترق من حبها وشوقه إليها.

ثم ينتقل الشاعر ممتطيًا صهوة الحرف واللغة والمعنى، وبتكرار ضمير الأنا، لكي يؤكد للمتلقي مدى العشق والحب والهيام.

وَأَنَا الشَّاعِرُ الذي عَمَّدَ القَلْبُ
بِنَارٍ فَصَارَ قَلْبًا حَقّا
وَأَنا الصُّوفِيُّ الذي لَا يَرى مَا
بَيْنَنَا فِيْ عَيْنِ الحَقِيقَةِ فَرْقا
وَأَنا الظَّامِيءُ الذي لَيْسَ يَرْوَى
لَوْ قَضى العُمْرَ مِنَ شِفَاهِكِ يُسْقى[37]

فهو الشاعر الذي عمَّد قلبه ولكن ليس بالماء بل بالنار، وذلك لتأكيد عملية الانصهار، بحيث يصبح هو ومدينته قلباً واحدا، وتكتمل الصورة لديه واصفاً نفسه بالصوفي الذي يرى بأنه والحقيقة جسد وشخص واحد، وماء مادبا مهما شرب منه فإنه لا يرتوي بل يبقى على ظمأه ويطلب المزيد وتلك ليست إشارة من الشاعر على عدم الارتواء ولكنها إشارة على عدم الاكتفاء من المحبوبة، ويواصل الشاعر بثهِ نجواه لمدينته، ومزيداً من التكرار.

آه يا مادبا جناحـــــي ضعيف وعلى الظهر ألفُ هَمٍ مُلقى
آه يا مادبا وقلبي جـــــراح تَتَنامى نَزفاً وتزدادُ عُمقا
آه يا مادبا فطريقي ظلامٌ وطُويلٌ فكيفَ أحرز سبقا[38]

ها هو الشاعر كما هو دأبُ الشعراء يبث همومه ونجواه وشكواه لمدينته الحبيبة فهو يُخاطب المكان الغير حي وكأنه يُخاطب إنسان واعي وعاقل وبنفس الوقت قريب منه ومن قلبه حتى يَبثهُ همومه ومعاناته .

كم على تُربها مِن ذِكرى سيفنى الزمان وهي ستبقى
وَيعزيني أَنني حِينَ أقضي في ثراها أبلُ للقلب شوقا[39]

تلك الذكريات التي عاشها الشاعر في مادبا سوف تبقى وحتى مع فناء الزمان، وعزاءه الوحيد حين موته بأن ثراها سوف يكون راوياً لقلبه ومكاناً لسكنه في إشارة منه إلى الموت، ومن ثم ينتقل الشاعر ببقية أبيات القصيدة وكيف هي مادبا بالنسبة له وكيف هو يراها؟

أنتِ يا مادبا فُيوضُ فُـــؤادٍ عَبقريٌ في الحبِّ شَفَّ وَرَقا
أنتِ كالخمرِ عَذبةٌ في صِباها ثُم زادت على الليالي عِتقا

أنتِ كالروضِ كُلما هَبت الريحُ عَليه يَزدادُ بالعطر دفقا[40]

هنا يستخدم سعيد يعقوب تقنية تكرار الضمير وهذا التكرار الذي يجعل المتلقي في حالة ترقب للمشهد كامل فهذا وصف مدينة مادبا وهو يخاطبها بتكرار ضمير المُخاطب – أنت – وذلك لإبراز جمالية النص وجمالية مدينته، مما يُعطي النص صورة فنية حية، وعادة الشعراء عندما يذكرون الأمكنة يخاطبونها في أحيان كثيرة بصيغة الأنثى فهي الأم والحبيبة والصديقة، لِما للأنثى من أفضلية من الناحية العاطفية، وفيه أيضاً إشارة على الخصب حيث أن الأنثى تمتاز بذلك عن الرجل، يقول لها أنت صاحبة القلب الذي يفيض ويتدفق حُباً ورقة، وأنت كالخمر المُعتقة كصبيةٍ في عذوبتها، أنت كالرياض العطرة التي كلما هبت الرياح يزداد تدفق عطرها.

كنت والدهر ما استقامت خُطاهُ مِن جَميع النِساء أرفعُ ذوقا
فلبستِ الفسيفســـاء ثِياباً وَاتخذتِ الجلال والكبرِ طَوقا
فتجليتِ أحسنَ الغِيدِ قَـــــداً وَتَبديتِ أطولَ الغِيدِ عُنقا[41]

الفسيفساء التي تشتهر بها مدينة مادبا وهي ثوبها الذي تلبسه، وَيُضيف عليها فوق ذلك الطوق الذي يُزين رقبتها فهو طوق من الكبرياء والجلال، فكانت من أجمل النساء ومن أكثرهن حُسناً وجمال، ولأن طول العنق من علامات الجمال فهي من أطولهن عُنقا.

وكأني بالدهرِ لما اجتلاها بَعدَ مَدِّ العينين غرباً وشرقا
قال في رقة المُحبِّ بصوتٍ يَفضحُ الوَجدَ والهوى والشوقا
(مادبا لستِ كالنساء ولكن أنتِ أحلى وأنت أوفى وأرقى)[42]

في هذا التكرار لشطر البيت الأخير والذي كان في البيت الأول من القصيدة وهو تكرار المقطع حيث أنه " يوفر تكرار المقطع لبنية القصيدة فرصة كبيرة لتحقيق تأثير مباشر على اعتبار أن المقطع أطول أجزاء النص الشعري، وحين ينبع تكرار المقطع من صميم التجربة الشعرية فإن هذا يكفل للتكرار أهمية خاصة تسهم في إغناء التجربة الشعرية دلالياً وإيقاعياً معاً"[43] وهذا تأكيد من الشاعر على كل ما جاء في وصفه لمدينة مادبا كمكان محبوب وقريب من قلبه، وهذا ما يؤكد أهمية المكان لديه سعيد سواء المكان الخاص متمثلاً بمدينته أو المكان العام لبقية وطنه الأردني والعربي، ومادبا كان لها النصيب الأكبر في شعر سعيد يعقوب ويوجد الكثير من القصائد التي تحدث فيها عن مدينته مادبا.

الخاتمة

إن المكان الأردني الحاضر في وجدان سعيد يعقوب يظهر جليًا في قصائده وهو يُعبر عن حالة عشق، وهو ما يجعل سعيد يعقوب يُقدم لنا نصوص فائضة الجمال، ونابضة بالحب، فتخرج الأمكنة عن جغرافيتها وهندسيتها لتُشكل لنا حياة الشاعر بمراحله وتحولاته المختلفة، وتلك كانت بعض من الأفكار التي وجدت أنها من صميم بحثي، وهو ما يؤكد لي أهمية الكثير من المقدمات للأعمال الأدبية، حيث تكون علامات وإشارات للباحث والمتلقي، قبل أن يدخل إلى عالم النص والشاعر.

ويلاحظ من خلال استعراض شعره الذي تمت دراسته في هذا البحث أن المكان كان حاضرا بشكل جليا في شعر سعيد يعقوب، وكانت المدينة الأردنية على مساحة واسعة من شعره، إضافة إلى بعض الأماكن العربية، وقد استطاع الشاعر أن يوظف المكان ضمن نصه الشعري ليمنح النص فضاء من الدلالات التي ارتبطت بدلالات المكان، فشكل المكان تعالقا مع وجدان الشاعر، فبدا إحساس الشاعر بالمكان وخاصة المتعلق بالمدن الأردنية ظاهرا على مستوى الانتماء للمكان، وعلاقة الشاعر بتلك الأمكنة.

Abstract

The aesthetics of place in Saeed Yacoub's poetry

By Saud Amjad Al-Thanibat

And Zuhair Ahmed Al-Mansour

The aim of this research is to identify the aesthetics of place in the poetry of the Jordanian poet Saeed Yacoub, and the presence of that place in his poetry, whether the Jordanian place or the Arab place. The research relied on the descriptive and analytical approach. The Jordanian place present in Saeed Yacoub's conscience appears clearly in his poems as he expresses About a state of love, which is what makes Saeed Yaqoub present to us texts of abundant beauty and full of love, so that places go beyond their geography and geometry to form for us the life of the poet in its various stages and transformations. There were many Jordanian places, such as the city of Karak, Madaba, Al-Mazar, and others, and some Arab places appeared, such as Gaza and Al-Aqsa Mosque.

Keywords: aesthetic, place, Saeed Yacoub, Jordan

الهوامش

[1]باسلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع 1984، ص 17

[2]يعقوب، سعيد، مقدسيات، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2015، ص18

[3]القرآن الكريم، الاسراء، آية1

[4]يعقوب، سعيد، مقدسيات، ص 20

[5]يعقوب، سعيد، مقدسيات، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع 2015، ص 20

[6]مقدسيات، ص22، ص23

[7]يعقوب، سعيد، غزة تنتصر، ص11

[8]يعقوب، سعيد، غزة تنتصر، ص11، ص12

[9]يعقوب، سعيد، نسمات أردنية، ص59

[10]يعقوب، سعيد، نسمات أردنية، ص59

[11]المصدر نفسه، ص59

[12]المصدر نفسه، ص60

[13]المصدر نفسه، ص60

[14]يعقوب، سعيد، نسمات أردنية، ص60

[15]المصدر نفسه، ص61

[16]المصدر نفسه، ص61

[17]المصدر نفسه،ص 61،62

[18]يعقوب، سعيد، نسمات أردنية، ص62

[19]المصدر نفسه، ص62

[20]يعقوب، سعيد، من مقدمة ديوان نسمات أردنية، ص9، ص10

[21]يعقوب، سعيد، من مقدمة ديوان نسمات أردنية، ص10

[22]يعقوب، سعيد، نسمات أردنية، ص33، ص34

[23]ربابعة، موسى، التكرار في الشعر الجاهلي، دراسة أسلوبية، مؤتة للبحوث والدراسات، 1990، م5، ع 1، ص 170

[24]يعقوب، سعيد، نسمات أردنية، ص34، ص35

[25]أبو زريق، المكان في الفن، عمان، الأردن، وزارة الثقافة، 2003، ص155

[26]يعقوب، سعيد، نسمات أردنية، ص 35

[27]يعقوب، سعيد، نسمات أردنية، ص 35، ص36

[28]المصدر نفسه، ص36

[29]المصدر نفسه، ص36

[30]المصدر نفسه، ص36

[31]صحيح مسلم، حديث(1397)

[32]مديرية ثقافة الكرك\ مركز الحسن الثقافي بالتعاون مع منتدى الفكر للثقافة والتنمية، أمسية شعرية 25\7\2022

[33]يعقوب، سعيد، نسمات أردنية، ص25

[34]يعقوب، سعيد، نسمات أردنية، ص 25، ص26

[35]المصدر نفسه، ص26

[36]المصدر نفسه، ص27، ص28

[37]يعقوب، سعيد، نسمات أردنية، ص28

[38]المصدر نفسه، ص28،ص29

[39]المصدر نفسه، ص29

[40]يعقوب ،سعيد، نسمات أردنية ص 30

[41]المصدر نفسه ص30

[42]المصدر نفسه، ص 30، ص31

[43]ترمانيني، خلود، الإيقاع اللغوي في الشعر العربي الحديث، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة دمشق، دمشق، سوريا، 2004، ص 121

المراجع

القرآن الكريم

باسلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع 1984.

ترمانيني، خلود، الإيقاع اللغوي في الشعر العربي الحديث، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة دمشق، دمشق، سوريا، 2004.

ربابعة، موسى، التكرار في الشعر الجاهلي، دراسة أسلوبية، مؤتة للبحوث والدراسات، 1990، 5(1).

أبو زريق، المكان في الفن، عمان، الأردن، وزارة الثقافة، 2003.

مديرية ثقافة الكرك، أمسية شعرية، مركز الحسن الثقافي بالتعاون مع منتدى الفكر للثقافة والتنمية، 2022.

يعقوب، سعيد، غزة تنتصر، عمان، الأردن، إصدارات الدائرة الثقافية لمسرح عمون، 2014.

يعقوب، سعيد، مقدسيات، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2015.

يعقوب، سعيد، نسمات أردنية، عمان، الأردن، دار أمواج للنشر والتوزيع، 2015.